جناحيها ، تتحول الى تيارات متعكرة ، فتفسد بقوتها الجارفة ذلك النـزر القليـل مـن الجمال ـ ولا يبقى منه غير شيء من الكدر الملوث في النهاية · وسرعان ما تصبح ثمة حاجة لدينا للانتقام ، للتكسير والتحطيم ، وعلى الاقل للدوس بالارجل · كانوا يجلدون الجمل الذي يدور بالناعورة المصطكة المشرشرة حتى يباس اليد ، ويركلون ذلك العربـي العجوز الذي تبقى هنا فللا ليستخدم في سحب المياه ، والذي لشدة رغبته في ان يكون نافعا ، ولكي لا يصبح في عداد الموتى ، كان يتشبث برسن الجمل ويدور معه سوية ، يدور ويدور ساعات طويلة ، هو والجمل معا · كانوا يطلقون النار على كلب ذاهل عشرات الطلقات الى ان يردوه قتيلا ، ينهالون على اي واحد بجدل مميت ، ثم يعودون ويسقطون في الملل والبطالة ثانية ، وفي وجبة طعام موحدة ومقيتة ، يقضمون ويفتتون ويقذفون العلـب الفارغة برمية يد ، بركلة قدم لتقريبها من الجحيم اكثر ، ويلحقونها بأعمال مشينـــة مماثلة ، وينتظرون الحدث الذي قد يقع ، قد يطرأ فورا ، فليحدث اي شيء ، والـى الجحيم ! ·

وحين كانت تحل الظهيرة ، وهي مغبرة عندنا ، وتغمز بنسغ حر متقطر في البعيد ، تغمز وتومىء الى اشياء ليست ، على ما يبدو ، من هذا العالم ، ولن تجيء اليك ، تتوقد بمتعة يوم تموزي على وجه ارض مترامية الاطراف ، مغبرة بالصفرة ، لا ظل فيها ولا مفر ، على عكس كل ما في الرطوبة تماما ـ وحين كانت الظهيرة تتوقد في طريقها ـ كانت الساعات تتهادى وتتهادى ، مستحيية ، وتتآكل حزنا كبيرا ، كما العدم ، الذي يزحف متثاقلا ، وينزلق فيساوي بين كل الاشياء ، حتى لتصبح كلها سواء ، مسطحة وتافهة ، فيفقد احدنا اعصابه ويقفز مهاجما من فوق التل يصرخ بالرجل عند البئر المعتصرة باحتكاك الناعورة دفقات دفقات متقطعة ، والدبابير تخوي على كل نقطة تنفلت منها ، ثم يصرخ ويكـــرر بثورة متصاعدة :

« أوخز النذل في مؤخرته ! فليدر ، فليتزحزح قليلا ، فليتزحزح ذلك القذر ! » ·

هكذا هي الانتظارات · واما ذلك اليوم الشتوي الرائع ، فوق تلك التلة المغروسة ، وكل ما حولنا كان اخضر ريان ـ لم تكن تلك سوى عسكرة لرحلة مدرسية ، حين لا ينبغـي عليك الا ان تبتهج وتحتفل بالساعات الجميلة ـ ومن ثم تعود الى البيت ، الى امك · كنا نضطجع ونستلقي على ظهورنا ، وعلى جوانبنا ، وملء قاماتنا ، وارجلنا تلوح في كـل اتجاه بحرية تامة ، والسنتنا تدور بارتياح ، تلهج وتجتر ثانية ، وكل ما ألقي على عاتقنا في هذه العملية ـ كان مهما كقشرة ثوم ، القرية التي هناك ، والمتسللون الذين فيهـا ، وكل ما اودعه الشيطان هنا معنا · فلسنا مدينين بشيء ، ولسنا ملزمين بشيء ، ولا مبالين بشيء ·

وبغض النظر عن اشياء كثيرة ، قد لا يكون كل ذلك الا برهانا اخر ، على ان هـــذه الحرب قد طالت ، في رأي الجميع ، اكثر مما يجب ، وقد آن الاوان ، ربما ، لان يأتـي اطفال اخرون لكي يكملوا اللعبة ، اذا ما استحال الامر دونها ·

وفي البساطة ذاتها وفي عدم الحيلة ذاته التي انبثقت فيها الثرثرة قبلا من خلال متعة التمدد الخالي ، سرعان ما ماتت وانتهت ، من خلال ما نسميه وباختصار : خواء القلب · بقينا متمددين وصامتين · الى مثل هذا الحد كنا نعلم علم اليقين ماذا سيقول من ، ومن سيقول ماذا ، وكيف سيلوي شفتيه حين سيقول ما سيقوله ، بل وما هي عادته في صمته ـ الى هذا الحد الذي كنت تسارع فيه فتوقظ الثرثار من جديد كي لا يصمت ـ لولا الكسل ·